كتاب فلسفة الملابس

كتاب (فلسفة الملابس) ألفه توماس كارليل مؤلف كتاب (الأبطال وعبادة البطولة) الذى فتن به كل من قرأه بعد ترجمته إلى العربية.

فى كتاب (الابطال) شرح مذهبه فى فلسفة التاريخ ورأيه فى عظماء الرجال.

أما فى كتاب (فلسفة الملابس) فقد شرح رأيه فى الحياة والناس وأساليب التصرف والسلوك.

كتاب (فلسفة الملابس) عربه الاستاذ طه السباعى.

يقول توماس كارليل فى مستهل كتابه:

(كما وضع مونتسيكييه كتابا عن روح الشرائع أضع أنا كتابا عن روح الملابس فإن الإنسان لايجرى مع الصدفة العمياء لا فى سند الشرائع ولا فى خياطه الملابس ثم تساءل:

(أى معان جليلة تنطوى عليها ألوان الملابس فمن الاسود القاتم إلى الاحمر الوهاج أى خصائص روحانية وصفات نفسانية يكشفها لك اختيار الألوان فإذا كان التفصيل ينبيك عن طبيعة الذهن والقريحه فإن اللون ليخبرك عن طبيعة القلب والمزاج.

إن الملابس هى المصدر والمنشأ لفضيله الحياء... ذلك الهيكل الظليل المحجب الذى يضم بين جوانحه كل مقدس فى الإنسان والملابس هى التى جعلت لنا شخصيات مستقلة ومميزات نتفاضل بها وسياسة نجرى عليها...و الملابس هى التى تجعل الفرد منا إنسانا ثم يسخر فى مرارة لاتخفى حين يقول (وهى التى تنذر اليوم بجعله مشجبا تعلق به الثياب وتعرض عليه الأردية).

وليست هذه السخرية الوحيدة فى الكتاب فهو حين يتكلم فى الفصل السادس عن المباذل والملابس التاريخية يقول (لله در المباذل كم من أمور تسترعن العيون أو كم من أمور تصون من المحذور! بل تأمل حق المتأمل وحدثنى عن حقيقة هذه الجيوش والشرطه والأساطيل ينفق عليها مالا يقدر من الملايين! أليست هى أيضا مبذلة ضخمه يرتديها المجتمع الإنسانى (فلا يزال فيها مرهقا مضايقا) - أي متضايقا- وهو يعمل فى ذلك المصنع الهائل الذى نسميه الدنيا فيقى بها نفسه مما يرفض هنالك من الشرر، ويتطاير حوله من القذر!

ثم يستمر فى السخرية أو التهكم لا أدرى فيقول (ولكن أليس من المعجب الطريف أن نرى خمسة ملايين قنطارا من الخرق تلتقط من المزابل فى كل عام وبعد أن تمزق وتكبس وتذاب. وتهيء ورقا وتطبع وتباع، تعود إلى المزبلة مرة أخرى، فتكون فى أثناء هذا الطواف قد أطعمت ألوفا من البطون الجائعة فكأن المزبلة بما حوت من الخرق البالية إن هى إلا بطارية كهربائية عظيمة تنبعث منها وتعود إليها تيارات المعاملات والمجهودات بعد أن تجول فى دوائر صغيرة وكبيرة خلال ذلك السديم المضطرب العجاج، والمطلق الرجراج، الذى يظل بفضل هذه التيارات جائش الحركة منعما بالحياة؟) .

والملابس عنده لها آثار ادبية وسياسية ودينية.

ويقف لحظة مندهشا من حقيقة قائمة وهى وجود الملابس والخياطين مع أن الإنسان خلق عريانا (عجبا والله! هذا الجواد الذى أمتطيه قد كفته الطبيعة مؤونه اللباس وأعدت له كسوة من الجلد والشعر، فلو أنى جردته من سراجه ولجامه، ولبده وحزامه، لبقى الحيوان النبيل مكتفيا بذاته، قد هيأت له الطبيعة من نفسه غزالا ونساجا وخياطا، بل أعدت له كذلك حذاء، وصائغا ووشاء فهو يجمح ويمرح فى بطون الوديان وعليه من اهابه الطبيعى كسوة خالدة لاتلوحها أشه الشمس، ولا يؤثر فيها وابل المزن بل لاينقصها ما يزينها من محاسن الوشم. فهى تروق العين بالغرر والأوضاع والشيات والدارات والخمل والهداب والألوان المشرقة والأصباغ المؤلقة).

وإن تومارس كارليل فى رؤيته هذه لابداع الله فى خلق الجواد ليذكرنى بعصفور ادبينا المازنى... لقد وصف الاستاذ المازنى العصفور بريشة مبدعة معجبا من فكرة أن العصفور لايتحلى بالملابس ولايبدل أقواف ريشه ومع هذا يبدو للعين جميلا فى كل حالة.

من يقرأ كتاب (ابراهيم الكاتب) للأستاذ المازنى تتملى عينه (عصفورا يذهب إلى حيث يشاء ويحلق فى الجوزاء ويسبح فى الفضاء ويبصر وهو ناشر جناحيه كل ما بين الأرض والسماء عصفورا ينحدر على شعاع من نور الشمس أو خيط من ضوء القمر. عصفورا يرفع منقاره وهو طائر ويتلقى فى فمه الدقيق قطرة من المطر... عصفورا يخط على أعلى فنن فى أسمق شجرة، أو يهوى إلى الأرض ويخطو بين أغصان البرسيم فتحجبه، ويمد منقاره إلى الماء حيث يجده ويمص قطرة ويتلفت عصفورا لايغير ثيابه، ولايبدل أقواف ريشه ولا يكون فى رأى العين مع ذلك إلا جميلا) ص ٥٨-٨٦.

وحين يرق توماس كارليل مع الجواد، ينحو باللائمه على الإنسان الذى تعتاده العادة من أنفه حيثما كان فلو أنه مشهد مطلع الشمس أو بدء الخليقة مرتين لعادت تلك المناظر فى عينه غير خليقه باثاره العجب بل غير جديرة باستدعاء النظر.

وفى هذا الموضع يذكرنى فى هذه المرة باستاذنا العقاد مع اختلاف فالذى يقرأ كتاب الأستاذ العقاد (حياة قلم) يصف تنفس الصبح أو مطلع الشمس كما يسميه توماس كارليل يجد الرؤية مختلفة تماما فالأستاذ العقاد يرى النهار (مبتكرا) مهما تكرر إنه يقول:

(كان النهار بساما، مدلا بشمسه، مزهوا بنوره، كأنما يحس روعته فى الأنظار وبهجته فى الأرواح وكأنما يتوهج من نظر العيون إليه كما يتوهج الوجه الصبوح تحت لمحات الأحداق كان نهارا مبتكرا عليه جدة لاتحسبها قد مضت عليها سويعه من يوم. خلقا مبتكرا يخيل إليك أنه يتلألأ فى فضائه للمرة الأولى وهل هناك فارق بين نور نهارنا هذا وبين أبعد مكان من الفضاء وفى أبعد فتره من الزمان؟ ها هنا شئ على الأقل تستطيع أن تقول إنه لم يفتك أن تراه قبل ألف ألف من السنين) ص ٢٧٧.

وتوماس كارليل يرى المجتمع الإنسانى مؤسسا على الملابس وتلفه الحيرة فلا يخرجه من حيرته إلا سخريته التى تتمثل فى قوله (كثيرا ما أطالع وقد تولانى الملل والاكتئاب أخبار الحفلات الرسمية والمقابلات الملوكية والتشريفات السلطانية، وكيف تتقدم الوفود بين صفوف الحجاب والنبلاء. والقواد والأمراء حتى تنتهى إلى السدة العلية بين مجالى التعظيم والاجلال، ومظاهر الأبهة والاحتفال، فبينما أجهد خاطرى فى تخيل ذلك الموقف، وأكد ذهنى فى تصور ذياك المنظر لا يروعنى إلا إفلاس الملابس عند أفراد المجتمع برمته. فاروح أتخيل الحجاب والأمراء، والأساقفة والنبلاء والأعيان والأقواد، بل الحضرة العلية بجلالة قدرها وكل أبن أم منهم واقفا هنالك عارى الجسد لاتستره خرقة، فأظل لاأدرى أأضحك من ذلك المنظر أم أبكى.

ترى ماذا يصنع صاحب الجلالة لو أن هذا الأمر وقع فعلا: ماذا يفعل القوم لو أن الازرة كلها طاحت من مواضعها وتبخرت أنسجة الملابس بالفعل كما خيل لى فى الوهم؟ لله أبوهم! كيف كان كل منهم يتسلل لواذاً إلى أقرب مخبأ، وكيف كانت تنقلب حفلتهم المهيبة رواية مضحكة، وكيف كان نظام الحكومة برمته، بل كيان المجتمع بجملته، يتداعى معهم ويتلاشى بين عولات الدمار وصيحات الغناء!).

ماذا أقول عن توماس كارليل ؟

شقاوة.

الجد الآن أتراه يريد أن يقول إن الإنسان يما يحتويه لا بما يقتنيه سواء أكان الاقتناء ملابس أو جواهر أو مالا وأثاثا ورياشا ؟

ما أبلغك يارسول الله حين قلت:

(المرء بأصغريه قلبه ولسانه).

ولكن الإسلام مع هذا يحب الزينه ومنها بالطبع الملابس. الإسلام توهج بحب الحياة فاعترف بمتاعها ومتعتها.

انيق يحب الجمال وأباح التزين وأتاح المتعة فى غير حرام.

ويتكلم توماس كارليل عن الملابس واللغة (لقد صدقوا حين يقولون: فلان عليه ثوب الهيبة والوقار، وفلان يغشاه رداء الحسن والجمال، وفلان عليه ثوب من مقت الله وغضبه، إلى ما شاكلها من الأقوال. بل تفكر فى الأمر مليا ثم حدثنى: ما الإنسان ذاته، بل ما حياته الدنيا بأجمعها، إن لم يكن رمزا وإشارة، وإن شئت فقل رداءا منظورا تسربلته النفس الآدمية الآلهية الهابطه من أعالى السماء إلى وهاد الأرض كأنها ذرة من النور أو لمحة من الأثير؟ ومن هنا جاز القول بأن الجسم رداء الروح.

يسمون اللغة رداء الفكر. والحق أن المعنى روح واللفظ جسم، أو ثوب من اللحم يرتديه الفكر.

ويعقد توماس كارليل الفصل السادس من كتابه عن (الملابس القديمة) أى المنزوعة لأن الملابس على الأجسام وسيلة للخداع (من ذا الذى رأى منكم أحدا من اللوردات يحييه الناس بتحيته وهو فى أسمال رثة وأطمار بالية؟ غير أن عبادة الثياب وهى على أجسام لابسيها لا تكون خالصة لوجه الثياب، بل ممزوجة بشئ. من النفاق والخديعة، لان الجسم يتعدى فى كثير من الاحوال على حقوق الثياب فيغتصبها ما كان موجها إليها).

وهنا يسخر توماس كارليل من الزيوف وهو يتكلم عن الملابس المجردة بعيدة عن أصحابها الذين يموهون بها.

(لله در الملابس العتيقة! أية عظمة فيها وأى جلال، وأية مهابة وأى وقار! تتواضع فى شرفها، وتتجمل فى مجدها، بحيث لا نظر شزر، ولا همز ولا لمز. تقابل الدنيا برزانة وسكينة، وترقب الحوادث فى هدوء وطمأنية، لا تقتضى الناس شعائر الأعظام، ولا ترهب أن تفوتها منهم مراسم الاحترام. تحفظ القبعة صورة الرأس وهيئتها، ولكن الغرور والغباء، وما ينم عنهما من هذر وهذاء، قد فات وتولى. ويمتد كم الثوب، ولكن لا للأذى والضرب. ويتدلى السروال، فى ارتياح وانسدال، غير مشدود، ولا مجهود، ولكنه يتعلق تعلقا رخيا، ويتدرج تدرجا نديا. وينبسط الصدار، فى سكون ووقار، غير خافق بالشهوات الجائحة، والاطماع الجامحة لا يأنس للجوع سعارا، ولا للعطش أوارا وهكذا تجد الثياب نقية مطهرة، لا تعلق بها أدران الشهوات، ولا تشوشها خوالج النزعات، فكأنها وهى راكبة على مشجبها ملاك روحانى، أو خيال نقى، هبط إلى الأرض على صهوة براق سماوى!) .

ويتكلم توماس كارليل عن تلاحم الأجيال وخلود الفكر والفكرة (فالمجموع الآدمى العجيب يجرى، بين الكثير من التيارات الخفية، ذلك التيار الملموس المرئى: تيار الآراء، متمثلا فى المعاهد العلمية والمنشآت الدينية وعلى الأخص فى الكتب..

فالأجيال هى للبشرية المتعبة بمثابة الأيام، والوفاة والميلاد ناقوسا المساء والصباح اللذان يدعوانها إلى النوم ثم إلى الانتباه لاستئناف التقدم منتعشة الجوارح مجددة النشاط.

ويتحدث توماس كارليل فى الفصل العاشر من كتابه عن (عشيرة المتأنقين) ففى رأيه أن الاناقة (عبادة الثياب) والمتأنق (يعيش ليلبس إذا كان سواه يلبس ليعيش) وله فى الملابس عبارات أو تعريف جديد من ذلك النوع الذى يبقى فى الذكرة لطرافته فالمتأنقون (حيوانات الملابس) والمتأنق (مشاهد وشهيد الملابس) اخلاصه المتناهى للملابس.

ومن الطريف أن يمعن كارليل فى السخرية من عباد الملابس فيفرد صفحة لوصف مسكن فقير ويقابله بوصف مسكن متأنق ثم يعلق (يلوح لى أن هاتين الشيعتين ستقتسمان بلاد الانجليز فيما بينهما يوما من الأيام بعد أن تضما إليهما كل ما هنالك من الطبقات التى هى الآن فاصلة بينهما، وغير منتمية إلى أيهما. عندئذ نجد الشعب البريطانى قد انشطر إلى معسكرين معسكر المتأنقين ومن يلوذ بكنفهم، ومعسكر الأجراء والأرقاء ومن ينضوى تحت لوائهم...).

وحين يسخر كارليل سخرية ملفوفة آناه وظاهرة أحيانا نراه يختم كتابه برفع القبعة للخياط فى جدية أو فى حنان غامر:

(لقد قيل عن فرانكلن أنه انتزع الصاعقة من السماء والصولجان من الملوك، ولكن أقول متسائلا: أيهما أعظم شأنا، الذى يعطى ويمنح، أم الذى يسلب وينزع ؟ ألا تنظر إلى الخياط كيف يتناول الإنسان عاريا فيخرجه من يديه كاسيا، أعلى رداء، لا من مجرد الصوف أو القطن، بل من المجد والعلاء، السؤدد والسناء؟ أليس هذا النسيج البديع، نسيج الهيئة الاجتماعية بما حوى من حلل ملوكية وطيالس كهنوتية، انتشلت الإنسانية من حالة العرى والتفرق فنظمتها هيئات متعاونة وجماعات متضامنة- أليس هذا النسيج من صنع الخياط وحده، كما أقمنا على ذلك غير مرة الدليل الساطع، والبرهان القاطع؟ بل حدثنى أليس كل شعرائك ومعلميك الروحانيين ضربا من الخياطين المجازيين؟.

وهذا إذن هو الذى يجلس فى حانوته منكس الرأس قد ضربت عليه المسكنة، وتناولته من كل ناحية نظرات الاحتقار! أيه أيها المضطهد المستضام! أرفع رأسك وانظر بعين الأمل المشرقة، وابشر بقدوم عهد سعيد لطالما جلست فى حانوتك مكبا على عملك، كأنك ناسك فى صومعته، مستغرق فى العبادة، يستنزل سن السماء أطيب بركاتها على عالم يسخر منه ويهزأ به... ولكن صبرا صبرا! ها هى تباشير الفجر قد لاحت من خلال السحب السوداء، مبشرة بأن ظلمات الجهل توشك أن تتمزق، وعندئذ تؤدى إليك الإنسانية دينها الممطول مضاعفا.

ويصبح الناسك المزدرى معبودا مبجلا، نعم ويصير الكسر رقما صحيحا، بل مربعا ومكعبا.

وهذا الكتاب لون من الكتابة الأدبية العلمية الفلسفية فى شمول ونفاذ يحلل ويحيط بجوانب الموضوع احاطة تامه فيها المنطق وفيها الطرافه فى وقت واحد فيها العمق وفيها الشاعرية.. فيها الفكره وفيها الاسلوب الرفيع... إنه لشئ ممتع حقا أن يقرأ الإنسان هذا الكتاب.